

التطور اللساني واللغوي في الهوية الثقافية الجزائرية

تمتلك الجزائر اليوم دستوريا وواقعا لغتين وطنيتين ورسميتين هما العربية والأمازيغية، لكن كيف وصلنا إلى ذلك تاريخيا، ونؤكد على تاريخيا لأننا لانعلم ما هو موجود فعلا فيما قبل التاريخ اي قبل ظهور الكتابة.

ثبت تاريخيا، وهناك إجماع حوله أن الجزائريين والمغاربيين القدماء كانت لغتهم هي الأمازيغية، وهي من اللغات القديمة التي حافظت على نفسها رغم كل محاولات طمسها على عكس لغات أخرى مثل القبطية والسومرية والسريانية واللاتينية، وتكتب بحروف التفيناغ، والتي تعني "كتابتنا"، ويبدو أنها من الكتابات الأولى في التاريخ قبل الهيروغليفية في مصر، هي لغة وكتابة حضارة الطاسيلي التي سبقت الحضارة الفرعونية وأثرت فيها بشكل كبير. ونشير إلى ظاهرة، وهي وجود الأمازيغية دائما إلى جانب لغات أخرى لدى الأمة الجزائرية خاصة والمغاربيين أو الأمازيغ عامة، فالجزائري قوي في تعلم اللغات والتفتح عليها، ولهذا لم تسد لغة واحدة إطلاقا لدى الأمة الجزائرية عبر تاريخها، فدائما نجد لغة أو عدة لغات أخرى إلى جانب الأمازيغية.

فعندما احتك الأمازيغ ب التجار الفينيقيين لم يتبنوا لغتهم ، بل اخترعوا لغة جديدة هي البونيقية، وهي خليط من الأمازيغية والفينيقية، وكان العامل التجاري وراء خلق هذه اللغة التي دامت قرونا طويلة، ولهذا كان أجدادنا يتحدثون بالبونيقية في المدن والسواحل إلى جانب الأمازيغية التي سادت بقوة في الجبال والصحراء، وهي نفس الظاهرة التي تعرفها الجزائر اليوم، حيث نجد الأمازيغية والعربية العامية التي هي خليط من أمازيغية وعربية ، وتشبه إلى حد ما البونيقية، ولهذا يفسر البعض تعرب بعض الجزائريين بوجود البونيقية القريبة من الفينيقية القريبة بدورها من العربية.

وعندما غزا الرومان بلادنا الجزائرية والمغربية، تحدث البعض باللاتينية خاصة رجال الفكر والسياسة، أي الخاصة، إلى جانب وجود الأمازيغية والبونيقية، أي مثل اليوم بإضافة اللغة الفرنسية التي تشبه إلى حد ما اللاتينية في الماضي ، فكما أعتبر الجزائريون والمغاربيون اللغة اللاتينية هي لغة الإستعمار الروماني الذي يبدو أنه محا كل ما يتعلق بالأمازيغية والبونيقية، فإن الشعب الجزائري اليوم رغم توظيفه الفرنسية إلا أنه يعتبرها لغة المستعر الفرنسي الذي عمل مثل الرومان على طمس الهوية الوطنية الجزائرية، وعمل على محو كل ما يتعلق بالعربية والأمازيغية وضرب قاعدة هويته، وهي الإسلام.

وعندما دخل الأمازيغ الإسلام انتشرت اللغة العربية رويدا رويدا لديهم بفعل عدة عوامل ومنها أنها لغة الدين الإسلامي، وقد شرحنا ذلك فيما سبق عندما تحدثنا عن تعرب الأمازيغ في التاريخ، وبشأن اللغة العربية أو بتعبير آخر يقول الكثير أن العربية العامية الجزائرية قبل أن تغزوها بعض الكلمات الفرنسية والإسبانية حديثا هي قريبة جدا من العربية الفصحى، وهذا ما يعتبره البعض أنه دليل أن الجزائريين خاصة، والأمازيغ عامة، تعلموا العربية مباشرة من تعلمهم القرآن الكريم، وهذه القاعدة معروفة ، وهي أن الإنسان الذي لا يتحدث لغة ما ، فإنه يتعلم فصحاها مباشرة.

يتبين لنا الآن أن الجزائري عبر تاريخه لم يستخدم لغة واحدة ، بل كثير التفتح على اللغات، فالأمة الجزائرية اليوم تمتلك لغتين اليوم هي العربية والأمازيغية ، كما يثبت لنا التاريخ الطويل للأمة الجزائرية التعامل البرغماتي والمنفعي للإنسان الجزائري مع مسالة اللغات وإستخدامه عدة لغات في نفس الوقت، فقد أنتج مثلا لغة جديدة لتسهيل تبادل السلع بالمقايضة مع التجار الفينيقيين

كما بيننا ذلك من قبل، فظهرت البونيقية في الألف الأول ق م لأهداف تجارية بحتة، وهي خليط من الأمازيغية والفينيقية، وانتشرت في السواحل، كما تعامل الجزائريون في القديم بالأغريقية، وكان ماسنيسا يتقنها جيدا مع النخب الحاكمة آنذاك وجزء من الجزائريين، وأكد أن الجزائريين قد أنتجوا بكل من الأمازيغية والأغريقية والبونيقية، لكن طمس مختلف الإستعمارات هذا الإنتاج، وعرضته للإتلاف خاصة من الرومان، وعندما تعرضت بلادنا للإستعمار الروماني تعامل شعبنا مع اللغة اللاتينية ببراغماتية، وأنتجوا بها علوما وفنونا وتراثا لازال سائدا إلى حد اليوم مثل أعمال سانت أوغسطين وأفولي وغيرهم الكثير من الجزائريين، وهي نفس الظاهرة تكررت مع اللغة الفرنسية بعد مجيء الإستعمار الفرنسي في 1830.

وبعد إعتناق أجدادنا الإسلام حافظ الكثير منهم على الأمازيغية، كما ظل يتعرب آخرون بمرور الزمن بفعل عدة عوامل تطرقنا إليها في محاضرة سابقة، فكان هذا التعرب الممتد على 15 قرنا وراء إعطاء لكنة وكلمات أمازيغية كثيرة للعامية الجزائرية حسب المناطق، ولم يكن تبني العربية لأنها فقط لغة الدين الذي اعتنقوه 100% تقريبا، بل لأسباب أخرى أيضا، وأبرزها إصرار مختلف الحكام الجزائريين للدول التي أنشأوها بعد إنتشار الإسلام على تبني العربية رغم إتقانهم الأمازيغية، فساهم بها شعبنا في الحضارة الإسلامية كغيره من الشعوب الإسلامية، فحتى اللغة الأمازيغية اصبحت تكتب بحروف عربية مثلهم في ذلك مثل كل الشعوب الإسلامية التي أتخذت الحروف العربية كحروف كتابة للغاتهم مثلهم في ذلك مثل الفرس والأكراد والهنود بلغتهم الأوردية والملايو في اندونيسيا وغيرهم، وكذلك الأتراك قبل ان يستبدلها مصطفى كمال بالحروف اللاتينية بعد قضائه على الخلافة العثمانية في 1924.

يتم التعبير عن الثقافة الجزائرية اليوم كما سنرى فيما بعد باللغتين العربية والأمازيغية الفصحى، خاصة في المجالات الفكرية والأدبية، كما يعبر عنها بالعامية العربية وكذلك اللهجات أو التنوعات الأمازيغية المختلفة بالنسبة للفنون كالغناء والمسرح، وحتى السنيما، لكن هذا لا يفي بوجود بعض التعبيرات بالفرنسية في المجالات الفكرية والأدبية رغم أنها ليست لغة الجزائريين، بل هي من تأثيرات الإستعمار الفرنسي كما كانت اللاتينية في تاريخنا القديم كتأثير للإستعمار الروماني كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل، لكن رغم التعبير بلغة فرنسية إلا أنها تتم بروح جزائرية بحتة، كما بدأ الجزائري يتفتح اليوم على لغات عالمية، وعلى رأسها الإنجليزية.